براهين

وجود

الله

كتبها ناصر حداد رحمه الله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

بينما كنت أبحث في محفظة أخي ناصر الذي وافته المنية في حادث مرور قبل أكثر من عشرين سنة وقع نظري على رسالة صغيرة كان قد خطّها بيمينه و لكن لم يسعفه الحظ لطبعها و نشرها فارتأيت أنّ واجب الأخوّة يقتضي أن أكمل ما عجز عنه أخي رحمه الله عسى أن يكون له علم يُنتفع به. و أطلب من كل من قرأ الرسالة أن يدعو له بالرحمة. إن أصبت فمن الله و إن أخطأت فمن نفسي و من الشيطان، و السلام عليكم ورحمة الله.

براهين وجود الله

بسم الله الرّحمن الرّحيم.

مقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم و به أستعين و أصلّي و أسلّم صلاة و سلام يليقان بمقام أمير الأنبياء وإمام المرسلين سيّدنا محمّد بن عبد الله و على آله و صحبه الغرّ الميامين. و بعد فهذه رسالة متواضعة لكنّها شيّقة تفيد القارئ الكريم ببعض الحقائق العلمية على سبيل الإجمال مصحوبة بالإشارة إلى حكمة العليّ القدير في تنظيم هذا الكون الفسيح، وترتيب أموره على نسق إلهي معجز تنبس بتمجيده الشفاه و تعنوا أمامه الجباه،

و لقد أعانني على هذا العمل حبّي لله و شوقي للتعرف على ذاته العليا من خلال تتبعي لأسرار خلقه لأقتفي من حكمه البالغات في تدبيره لأمور هذا الكون الفسيح فللّه في خلقه شؤون. فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي و ما توفيقي إلا بالله.

سئل أعرابيّ عن الدليل على وجود الله فقال:

البعرة تدلّ على البعير، و أثر السير يدلّ على المسير و أرض ذات فجاج، و سماء ذات أبراج، و بحار ذات أمواج، ألا يدلّ كلّ هذا على اللطيف الخبير.

و سئل الإمام الشافعي عن الدليل على وحدانية الله فقال:

الدليل على وحدانية الله ورقة التوت، تأكلها البقرة فتخرجها حليبا صفياّ، و تأكلها النحلة فتخرجها عسلا شهياّ، و تأكلها الغزالة فتخرجها مسكا نديآ، و تأكلها الدودة فتخرجها حريرا طرياّ. فاختلاف الصنعة يدلّ على وحدانية الصانع.

فائدة الإيمان بالله

الإنسان مخلوق ضعيف بالنسبة إلى التحدّي الذّي يواجهه من الطبيعة و وسيلته الوحيدة ليتغلب على الصعاب و الانتصار على الظروف هي ذكاؤه، فإذا أعياه ذكاؤه عُدم الحيلة و اضطرّ إلى الاستسلام، و لكن هذا الاستسلام يختلف التعبير عنه من شخص لآخر، و يتراوح مداه من اليأس المطبق إلى الانتحار، هذا فيما إذا وُكّل الإنسان نفسه لنفسه، أمّا إذا توكّل على الله، فإنّه سيصل حتما إلى شاطئ النجاة. لأنّ المؤمن يعتقد أنّ ما يصيبه من مصائب، إنّما هو ابتلاء من عند الله و تطهيرا له من الذنوب و الآثام، فيجد في إيمانه العزاء و السّلوان.

و الإيمان لغز محيّر بالنسبة إلى من لم يتذوق طعمه ، و لذلك اتّهم المشركون محمّدا صلى الله عليه و سلّم بالسحر لمّا رأوا أصحابه مسحورين به و بالوحي الذي يتنزّل عليه، واتّهام الرّسول الأعظم صلى الله عليه و سلّم بالسحر، هو الاتهام الذي اعتمده المشركون و استقروا عليه و روّجوه في أوساط الحجيج حتّى لا يتمكنوا في الدخول في الدين الجديد. أمّا الاتهامات الأخرى كممارسة الكهانة و فرض الشعر و مس الجنون، فهي مجرّد اتهامات موضعية موقوتة يُصرف بها أوباش الناس

لأنّ خواصهم من أسياد القبائل و فصحاء البوادي لا ينخدعون بهذه الافتراءات في حقّ رجل لا يغلب على كلامه المعجز سجع الكهان المتكلّف، و لا يتقيد بأوزان الشعر و الرجز و بحورها و تفعيلاتها المعروفة، و لا هو إملاء خلجات الجنون، إذ هو أعقل كلام سمعته العرب، وأعذب نظم عرفته القبائل العربية في الجزيرة كلّها، و النبي مع ذلك يتحدّى بالوحي المنزّل نوابغ العرب و فصحاء الأعراب، فما تجرّأ أحد على ردّ التحدّي، فلمّا كان السحر هو أعجب و أغرب ما رأوا ألصقوا به تهمة ممارسة السحر. و بسبب الإيمان كان الرعيل الأول من

الصحابة الكرام محل إعجاب الأمم أثناء الفتوحات الإسلامية الكبرى بنا اتصفوا به من شمائل و خصال.

براهين وجود الله

1- برهان عقلي:

يقول تعالى في سورة آل عمران: " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ (190) "

إنّ العقل لا يستطيع أن يتصوّر نهاية للكون، إذ أنّ تصوّر النهاية يقود إلى البحث عمّا وراء هذه النهاية، إذن فالنهاية التي يتصوّرها العقل ليست نهاية، ما دام في العقل امتداد إلى ما ورائها، و هكذا تمتدّ سلسلة التصوّرات إلى ما لانهاية له، و هذا على ما يبدو قصور في العقل. و كذلك إذا حاول العقل أن يتصوّر حجم الكون، فإذا توقّف التصوّر عند حجم ما فإنّه يقفز إلى ما وراء هذا الحيّز، و هكذا دوليك إلى ما لا نهاية له ليبدو أيضا انه قصور. وإذا حاول أن يتصوّر أصغر جرم على الإطلاق فإنّه يتوقّف عند تصوّر ما دون أن يبلغ منتهى غرضه، إذ أنّ أصغر جزء في المادّة هو الذرّة و لكنّ الذرّة بدورها قابلة للتجزئة إلى نواة و إلكترونات، كذلك النواة قابلة للتجزئة إلى بروتونات و نيوترونات. السؤال: هل اكتفى العقل بهذا الحدّ من الصغر؟ الجواب: لا. ويستمرّ العقل في تصوّره؛ هل البروتونات و النيوترونات قابلة للتجزئة ؟ يأتي الجواب بنعم. فكلّ من البروتونات و النيوترونات تتكوّن من الكواركات. يبدو أنّ العقل يبحث دائما عن مطلق الصفات التي يمكن أن يتصوّرها و كأنّ لسان حاله يقول " هل من مزيد ".

و تصوّر العدم ممتنع في العقل إذ أنّ التصوّر مشروط للموجودات لا للعدم، فالعقل يحاول أن يتصوّر جوهر العدم فيتدارك نفسه بأنّ الجواهر أشياء موجودة لا معدومة، و تصوّر بداية الأزل ممتنع

أيضا عقلا لأنّ طلب ذلك يتم بفكر تراجعي زمنا، أمّا تصور الخلود فهو يبدو ممكنا هذا له علاقة بطبيعة النفس البشرية التي ترغب في الخلود، وكأنّ هذه الرغبة قد أثّرت في التصوّر العقلي للخلود فجعلته ممكنا، و لكنّ العقل يقرّ بوجود هذه النهايات و الحدود غير أنّه يجهلها و يمتنع فيه تصورها، كما قال أحد الفلاسفة: " اللاّنهاية هي نهاية مجهولة " و قيل أيضا: " الشكّ في وجود الشيء هو دليل على وجوده ".

و ما دام المجهول في حال معلوما في حال أخرى، فإنّ هناك عقل أكبر يحصر هذه الحدود و النهايات و يحيط بجميع الحسابات و هو العقل الأعلى.

2- برهان طبيعي

يقول تعالى في سورة الغاشية: " أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (18) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (19) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (20) "

إنّ أبرز مميّزات الطبيعة هي الاتساق المنظّم القائم بين عناصرها، فكلّ عنصر يفتقر إلى الآخر و يستمدّ أسباب بقائه منه، و هو ما يعرف بنظام الدور أو التعايش، فالنبات الأخضر يفتقر إلى ثاني أكسيد الفحم لكي يصنع غذاءه بنفسه، فيأخذ منه الفحم و يطرح الأكسجين الذي هو عنصر ضروري لتنفس الحيوان، والحيوان بنفسه يقوم بعمليّة عكسيّة أثناء التنفس فيستنشق أكسجين الهواء و يطرح ثاني أكسيد الفحم، فبين الحيوان والنبات الأخضر عملية أخذ وعطاء. و هي عملية شبيهة بتجارة المقايضة التي كانت تتم في الأزمان الغابرة (استبدال سلعة بسلعة).

و كما لا يخفى أنّ الكلأ و كثيرا من النباتات هي غذاء رئيسي لكثير من الحيوانات التي ستكون هي الأخرى وجبة مفضلة للإنسان و السباع المفترسة.

و المواد الكربوهدراتية والنتروجين التي تدخل في تركيب المادة الحية على وجه العموم هي بمثابة سماد ممتاز للتربة، فالحيوان الذي يموت و يتحلل يكون فيما بعد غذاء لمختلف النباتات. والتربة التي تعطي جودة النوعية و وفرة الكمية، إنّما ذاك ثمرة السماد الذي يتألف أساسا من المواد الكربوهدراتية. أما الشمس و القمر فيعطيان الطاقة للنبات الأخضر كي يستمر في تركيب النشا.

و النبات يعطي الأكسجين للحيوان، انطلاقا من غابات الأمازون التي هي رئة العالم باتفاق العلماء، إلى العوالق المائية التي تمتص كميّات هائلة من ثاني أكسيد الفحم الذي إذا زاد فوق مستويات محدودة تسبّب في الاحتباس الحراري المفضي إلي نتائج كارثية. والإنسان يحصل على غذائه من النباتات و لحوم الحيوانات التي تتغذى هي بدورها على الأعشاب و أوراق الأشجار التي تمتص من التربة بقايا الحيوانات المتحللة.

و نفس الشيء يقال على الماء و دورته الحيوية، فإنّ الشمس تتسلط بحرارتها على المسطحات المائية فتتصاعد كميات هائلة من بخار الماء، و بعد أن يبرد في جو السماء بتأثير المناخ يتكاثف على هيئة غمام ثم يتألف فيما بينة و يتساقط أمطارا و أنواء، فإذا كانت هناك خزانات أمسكت بعض المخزون من المياه تستعمل لوقت الحاجة، وإلاّ جرى أنهارا و جداول ليعود مرة أخرى إلى منابعه الأولى –البحار و المحيطات- و لا يخفى على أحد ما للأنواء من أياد فضلى على الأحياء، فهي تكفل لهم الأرزاق بإثارة التربة التي تزدان بشتى أنواع الثمار و الخضار، و هي التي تمهّد لفصل الربيع كي يظهر في أبهى حلله من إزهار و اخضرار.

و يبدو أنّ الشمس هي أمّنا الحنون التي ما تنفكّ تجود لنا بالنور و الضياء الذي منه تتفرع الحياة بمختلف أشكالها من أدناها إلى أرقاها.

و كذلك الليل و النهار فساعات النهار هي الزمن الأمثل لحركة الأحياء، و للإبقاء على خصائصها و مميزاتها دون أن تؤثر فيها بتغيير معالمها، إذ لو طال النهار أكثر من مدّته مدّتين في المناطق

الاستوائية لكان ذلك كارثة على الغابات و الأدغال التي تحترق بأشعّة الشمس المتسلّطة، و إذا لانتهت الغابات و انقرضت الحياة.

هذا بالإضافة إلى نشوء أمراض تصيب الحيوان كمرض السرطان، و تؤثر في قدرة العوالق المائية في امتصاص ثاني أكسيد الفحم.

و نفس الشيء يقال عن امتداد الليل ساعات أخرى، فإنّ ساعات الليل هي المدّة المثلى لارتياح الأحياء و سكونها بعد نشاط النهار و صخبه، و لذلك فإنّ ساعات النوم اللازمة للإنسان كي يستعيد نشاطه لليوم التالي تناسب ساعات العتمة، و قد أفاضت الآيات البيّنات في القرآن الكريم تمتنّ بخلق الليل و النهار، فلو فرضنا جدلا أنّ الليل أطول ممّا هو عليه بمثلين لانخفضت درجة الحرارة إلى ما تحت درجة التجمد بمراحل، مما يتعذر معه بقاء الحياة فوق أديم الأرض. و إنسان الإسكيمو الذي يقطن القطب الشمالي و ما جاوره معد خلقة لأن يتكيّف مع بيئته القاسية فهو يتحمّل البرودة أكثر من غيره، مع ذلك يتزود بالألبسة ذات الجلود و الوبر كي يحدّ قسوة البرد القاتل.

و الأرض تميل عن مستوى مدارها بزاوية قدرها 23°، و هو الميل الأنسب لتكون الفصول، و لولاه لاضطربت أوقات الفصول.

و جاذبية الأرض هي أنسب ما تكون للحفاظ على المياه في حدودها، و لو أنّها اشتدت أو انخفضت قليلا عمّا هي عليه لحدث اضطراب عظيم في تيّارات المياه، أدى إلى سيول عارمة و طوفانات جارفة تجرّ معها كل شيء.

و بعد الأرض عن الشمس هو بعد محكم يناسب استمرار الحياة على الأرض.

و هذه كلها آيات تدلّ على أنّ هذا النظام مقصود إحكامه لحكمة بالغة و تدبير عظيم.

3- برهان بيولوجي

يقول تعالى في سورة الذاريات: " وَفِي أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ(21)"

نقتصر في حديثنا فيما يتعلق بهذا الموضوع على شذرات و إشارات طفيفة تاركين الإسهاب الممل، مقتصرين على ما يخدم الموضوع، لأنّ علم البيولوجيا علم واسع لمن كان أهلا للاختصاص فيه.

فإذا التفتنا التفاتة إلى التكوين المادّي للإنسان لكشفنا عن آية من آيات الخالق العظيم، فالإنسان يتمتع بعينين اثنين، أفلا تكفيه عين واحدة؟ إنّ عينا واحدة لا يمكنها أن تدرك إلاّ بُعدين، و ليس بإمكانها أن تحدد البعد الثالث، و بالاستعانة بعين ثانية يمكن للإنسان أن يرى الأشياء بأبعادها الثلاثة، أي أنّ عينا واحدة منفردة تبصر الأشياء مسطّحة، و لا يمكنها تحديد العمق، و يمكنك التأكّد من ذلك بتجربة بسيطة، و هي أن تغمض إحدى عينيك و تفتح الأخرى، و يقف أمامك شخص آخر فيشير لك بأصبعه إلى السماء فحاول أنت، أن تمد يدك و تشير له بأصبعك في مستوى يقابلك و يوازي المستوى الذي أنت فيه، فيشير له بطريقة عمودية ثم تقترب منه بأصبعك لتمس أصبعه، إنّ تقديرك يخونك و لا تتمكن من الوصول إلى أصبعه، اللهم إلاّ عشوائيا. أمّا إذا فتحت عينك الأخرى أمكنك ذلك بسهولة، و كذلك الشأن بالنسبة للأذنين، فأذن واحدة لا تستقبل إلاّ الأصوات التي تأتيها من جانبها، أما الأذنان معا فبإمكانهما أن تجمعا الأصوات مهما كان مصدرها.

و الأنف مزود بمنخرين لاستنشاق الهواء، و بما أنّ الهواء يحتوي على جراثيم ضارّة زوّد المنخران بمخاط لزج تفرزه غدد خاصّة

يقتل الجراثيم و يقاوم الأجسام الغريبة، فإذا لم يفلح هذا المخاط في مسعاه فإنّ أنبوب التنفس مبطن بمخاط أو بأغشية مخاطية تكمل المهمّة حتى تقضي على جميع الجراثيم أو جلّها، و لولا هذا المخاط لأضحى الإنسان لقمة سائغة لأمراض الرئة لكونها المنافح المثالي للرئتين من الأوساخ و الغبار و الجراثيم التي لا ترحم.

فالهواء و الطعام لا يطغى أحدهما على الآخر، ذاك للرئتين و هذا للمعدة، و كلّ ذلك يتم بلا إرادة من الإنسان.

و الطعام يهضم في المعدة ثمّ ينزل الأمعاء فتستخلص منه النافع للشعيرات الدموية لكي ينتفع به الجسم كلّه. و الفائض الذي لا يحتاجه الجسم يتحوّل إلى الأمعاء الغليظة، ثمّ إلى فتحة تطرح من خلالها الفضلات ذات الرائحة الكريهة، و في الحيوانات اللّبونة يسلك اللبن طريقا إلى الضروع بين الفرث و و الدم دون أن يتأثر برائحة الفرث الكريهة أو بلون الدم الأحمر القاني. يقول تعالى في سورة النحل " وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ(66) ".

و في الدم عناصر دفاع تذود عن الجسم بأسلوب ذكي في غاية الإعجاز، هذه العناصر تسمى كريات الدم البيضاء تتلقى أوامر الهجوم على جسم غريب وفق خطة حربية تبرمجها القيادة (الخلايا T). و بعض خلايا الدفاع هي خلايا انتحارية تبتلع العدوّ فتقضي عليه وتتسمّم به فتموت.

و في الجسم غدد كثيرة و متنوعة الوظائف و الخدمات و منها المعثكلة، فهي تقع تحت المعدة وهي موطن لعدة جزائر صغيرة تسمّى جزر بيتا، و عملها هو إفراز مادة الأنسلين الذي يخفض

نسبة السكريات الزائدة في الدم، وتنشط المعثكلة في حالات الغضب و الثوران و الهيجان، لأنّ الجسم في هذه الغضون يحرّر نسبة عالية من السكّر في الدم الذي كان مخزنا في الكبد و في العضلات في هيئة كليكوجين (مادّة نشوية) فيسرع الأنسلين إلى تخفيض هذا المقدار المرعب الذي يمكن أن يكون خطرا على الإنسان كإحداث الصرع و الإغماء. و إصابة المعثكلة و جزرها الصغيرة يؤدّي بالإنسان إلى إصابته بمرض السكري، الذي يقتضي نظاما غذائيا فقيرا من المواد الحرورية. وهناك غدّة أخرى عملها مضاد لعمل المعثكلة و هي الكبد، فالكبد و المعثكلة هما غدّتان تتضافران و تعملان على تحقيق التوازن في مقدار السكر في الدم، فإذا كان هذا المقدار منخفضا نتيجة صوم أو سوء تغذية تفطنت الكبد لهذا الخلل و عمدت إلى تحرير سكرها المخزون بنسب توافق الحاجة.

و الغدد عموما تفرز سوائل يحتاج إليها جسم الإنسان لتكوين شخصيته، و كثيرا ما يقال: فلان عصبي المزاج و فلان عاطفي المزاج، إشارة إلى امتزاج السوائل و تغلب بعضها على البعض، فسبحان من قدّر ذلك.

4- برهان نفسي اجتماعي

يقول تعالى في سورة إبراهيم: "قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ(10)"

إنّ فكرة وجود إله خالق لهذا الكون و منظم له و مدبر لشؤونه هي فكرة قديمة قدم البشرية، يعرفها من رجع إلى كتب الأديان، فالمجتمعات البدائية كانت تؤمن بالقوى المطلقة المسيطرة على هذا الوجود، و لم يكن إيمانها قاصرا على مجرّد الاعتقاد، بل كانوا يلجأون إلى هذه القوى في أوقات الحاجات و الشدائد، و كانت لهم طقوس و عبادات و أدعية خاصّة يتوسّلون بها إلى ما يعتقدون أنّهم آلهة كما تقرّر بعض كتب تاريخ الأديان.

إنّ عواطف هؤلاء البدائيين و مشاعرهم نحو هذه القوى المطلقة هو الذي دفع بهم إلى عبادتها و الاستغاثة بها، رغم أنّ هذه المجتمعات كانت تعيش منعزلة عن بعضها، فلم يكونوا يحتكون فيما بينهم، نظرا لأن كل بيئة تنظر إلى أختها بعين المناوءة و العداء.

و هذا الانفصال هو الذي يفسر لنا تباين الفنون و المشارب في هذه العهود، و نسبة كل فن إلى بيئته لا تستعصي حتى على من اطلع عليها عن كثب اطلاعا سطحيا. و هذه البيئات كلها يجمعها عامل مشترك واحد هو اعتقادهم بوجود الله لا خلاف بينهم إلاّ في التسمية و في كيفية أداء طقوس العبادة. الأمر الذي يثبت تأصّل الشعور بالألوهية في النفوس، و قد برز في عصور قديمة فلاسفة كثيرون كلّهم يمجّدون الله و يدعون إلى الخير.

5- برهان مادّي

يقول تعالى في سورة ص: "وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ(27)"

كثيرا من علماء المادة تفانوا في بحوثهم حول أسرار المادة و جواهرها و سرّ وجودها، إلى أن أسعف الحظ روّاد التكنولوجيا أن يبتكروا أدوات حديثة تسهل عليهم بحوثهم و تعينهم على تجاربهم.

لقد أثبتت التجارب النووية و الذرية أنّ المادة لا تفنى، ولكنّها تتحوّل من صورتها إلى صورة أخرى و هي الطاقة، فإنّ التفجير الذري يحرر طاقة هائلة جبّارة تفقد معه المادة خصائصها، و بالمناسبة يجدر القول بأنّ العلم يبطل الزعم بأزلية المادة و يؤكّد حدوثها.

بعد التجارب الذرية التي تمكنوا بواسطتها من القضاء على المادة و إحالتها إلى طاقة فكّروا في تجربة عكسية تراجعية تتحول الطاقة بمقتضاها إلى مادّة فلم يفلحوا في تجاربهم إلى حدّ الساعة.

و من هذا المنطلق قرّر العلماء أنّ أصل المادّة هي الطاقة، و انتساب الكون بنجومه و مجرّاته إلى أصول من نور يشير من طرف خفي إلى النور الإلهي الذي هو أصل لكل شيء.

6- برهان المنام و الرؤى

يقول تعالى في سورة الزمر: "اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ(42)"

و نوم الإنسان آية، فالإنسان ينام عندما يشعر بالنعاس أو بالتعب، فتتوقف جميع أعضائه الخارجية، فالعين لا ترى و الأذن لا تسمع و الأنف لا يشمّ، بينما تستمر الأعضاء و الأجهزة الداخلية في عملها، فالتنفس يستمر و المعدة تواصل هضمها، و القلب ينبض، أي أنّ الأعضاء اللاإرادية ذات عمل دءوب لا يلحقها التعب و لا السآمة.

و الإنسان يحلم في المنام فتتراءى له الأشباح، و يتنقل إلى البلدان و يجوب الأقطار، و يكلم الأموات، و يجالس الجنّ، و يطير في الهواء و يمشي على الماء، و يحاور الحيوان، يمشي في جنائز الأحياء.....إلخ.

أما الرؤى فهي غير الأحلام، فالرؤيا يراها العبد فتتحقق في الواقع إمّا مطابقة و إمّا مشابهة، و الرؤيا لها تفسير و تأويل، ولقد ترك الإمام ابن سيرين سفرًا ضخما عن تأويل الرؤى و تفسير الأحلام بما أفاء الله عليه في هذا الاختصاص. و لا شكّ أنّ القارئ الكريم قد جرّب من نفسه رؤيا رآها في المنام فتحققت في اليقظة.

إنّه إطلاع من عالم الغيب على ما يكون في عالم الشهادة، فالإنسان يرى الحادثة مرّتين مرّة في المنام و مرّة في اليقظة، هل من أسباب و علل توجب ذلك؟

إنّ العلّة الراجحة هي طهارة قلب الرائي قبل و أثناء نومه، فلقد جاءت الآثار أنّ الفاسق و الكافر لا رؤى لهم.

7- برهان الحركة

يقول تعالى في سورة البقرة: "إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (164)"

بما أنّ الكون حادث كما تقرّر أخيرا بعد تفنيد القول بأزلية المادة ، هذه الفكرة التي تزعمها أقوام بقصد الطعن في الأديان و إسقاط الاعتقاد بفكرة الخالق من الحسبان، فإنّ أول ما يعرض للسائلين من أسئلة هو كيفية نشوء هذا الكون و علّة النشوء، أو بعبارة أخر: كيف تمت الحركة و ما أسبابها؟ فعلم الكوسمولوجيا يردّ النشوء إلى الانفجار الأعظم الذي لا يقدّم لنا أكثر من تفسير لحقيقة توسع الكون، أمّا الأسباب و العلل التي مهّدت للحركة الأولى فلم يتعرّض لها العلم، مع أنّ الحركة لازمة الحدوث عقلا، و السكون لا يولّد حركة، فلا بدّ من قوّة أولى أحدثت الحركة و سيّرتها بإحكام إلى الهدف المنشود بنظام معجز و ترتيب دقيق.

8- برهان الملائمة

يقول تعالى في سورة القمر " إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (45)"

لا شك أنّ القارئ الكريم قد طالع أجناسا و أنواعا من الحيوانات، و لا شكّ أنه قد عرف المناخ الملائم و البيئة المناسبة لكلّ منها، فالجمل مثلا معدّ خلقا لأن يعيش في الصحراء، فلديه أخفاف مسطحة تلائم المشي على الرمال، و لديه رموش طويلة تحفظ عينيه من الغبار الذي يملأ جو الصحراء، و أنفه أيضا قابل للانسداد في فترات الزوابع الشديدة العابرة حتى لا تتسرب الرمال إلى منخريه، و تمشيا مع ذلك فالحيوان قادر أن يتحمل الدقائق الطوال دون تنفس، كما أنه يحمل في سنامه مخزونا من الماء يكفيه الأسابيع و الشهور دون حاجة إلى شرب تكيفا مع البيئة الصحراوية التي تقل فيها المياه، و تكسو لحمه طبقة كثيفة من الوبر تحميه من حرّ الهجير و برد الأسحار، فالصحراء مناخها يتميز بالحرارة الفائقة نهارا في الصيف و البرودة القارسة ليلا في الشتاء، والحيوان له قدرة كبيرة و كفاءة عالية في تحمل الأسفار و السير الطويل، فهو يتحمّل أن يمشي مسافة خمسين كيلومترا في اليوم الواحد، و ذلك ما يلائم فضاء الصحراء الواسع الامتداد.

و قد أطلق على الجمل اسم سفينة الصحراء لأنّ راكبه يشعر بدوار في رأسه كالدوار الذي يصيب ركاب السفن، لأنّه يتمايل أثناء مشيه يمنة و يسرة.

فسبحان القائل في سورة الغاشية "أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (17)"

و كما لا يخفى أيضا أنّ لون وبر الجمل يحاكي لون الرمال.

والطيور هي الأخرى معدّة خلقة للطيران و العيش على أغصان الأشجار، فلديها جناحان يستندان على الهواء أثناء الطيران ، و لها عظام مجوفة تخفّ من وزنها ، و نلمح في الطائر صدرا ناتئاً إلى الأمام مسطحا من الجانبين حتى يتمكن من النفوذ في الهواء، و لكلّ طائر علوّه المثالي الذي يفضل الطيران فيه، فالعقبان و

النسور و كواسر الطير تفضل ذرى الجبال الشاهقة أماّ الطيور غير الكاسرة فتفضل مستوى قريباً نسبيا من الأرض، هذا و كما لا يخفى ما للكروان و الهدهد و سائر العصافير المغرّدة الجميلة من ألوان زاهية تضاهي ألوان الطبيعة و تحاكي الربيع.

فلنترك البرّ و لنعد إلى البحر لنسبر أغواره و نكشف عن عجائبه، ففي أنواع و أجناس من الأسماك و الحيتان و هناك خلائق بحرية لها نظائر برية كفرس البحر التي تشبه الفرس، و كلب البحر الذي يشبه الكلب، و غيلم البحر الذي يعدّ نسخة من غيلم البرّ، و الاختلاف القائم بين هذه المخلوقات البحرية و نظائرها البرية يكمن في تكيّفها و ملاءمة كلّ منها لبيئته و وسطه فلا واحدة منها تستطيع العيش في بيئة الأخرى. و السمك الصغير ليس له رئة بخلاف الحوت الذي يسمى الدولفين فإنّه مزوّد برئتين يملأهما بالهواء الخارجي ثم يغوص إلى أعماق البحر، و الدولفين و ما شابهه من ذوات الرئة هي حيوانات ولودة بخلاف الأسماك الصغيرة فهي تبيض، ولديها غلاصم في رقبتها مزوّدة بشعيرات دموية متصلة مباشرة بالوسط لتمتص الأوكسجين المذاب في الماء. وبذلك يتمّ التنفس، و الأسماك من ذوات الدم البارد، أي أنّ حرارة جسمها تعادل مناخ الوسط المحيط بها، بينما الحيتان اللبونة كالدلفين فدمها ثابت الحرارة لا يتجاوب مع الوسط، وإنّما يحيط بجسم هذا الحوت طبقة كثيفة من الشحم تحميها من برودة الوسط الزائدة. و بما أنّ هذا الحوت قويّ البنيان مفتول العضلات عظيم الخلقة، فلا يحتاج إلى من يحميهّ بينما الأسماك الصغيرة ضعيفة وهي في حاجة إلى حماية، و لذلك فلها خلايا جلدية تتلوّن بلون الوسط الذي تكون فيه فتختفي عن أنظار عدوّها من المائيات الأخرى الأقوى منها.

لننتقل الآن بعدما شققنا كبد الصحراء و صعدنا الأجواء و سبرنا غور الماء إلى حياة الوحش في الغابات، من السباع الكاسرة ذات مخالب في نهايات أطرافها، و ذات أنياب وأضراس قوية، و هي مخلوقات مرعبة لها زئير و زمجرة مرعبين كالأسود و النمور و الضباع و الدببة، و القفز و السرعة سليقة فيها. و هذا يدلّ على استعداد الوحش لأن يمهر في الصيد و يكون من آكلات اللحوم، إذا اعتبرنا من جهة أخرى أنّ هذه السباع تجاور حيوانات برّية لا تقوى عن الذود عن نفسها كالظباء و الغزلان و الحمر الوحشية، التي هي بدورها معدّة في خلقتها أن تعيش

على الكلأ و الأعشاب و أوراق الشجر، فلا هي تحمل مخالب و لا هي ذات أنياب.

وتتوزع حيوانات الأرض كلّها حسب المناخ الذي يسود، ففي المناطق الاستوائية تكثر الفيلة و وحيدات القرون و الزرافات و التماسيح و السلاحف لأنّها تحبّ الحرارة و الرطوبة، و في المناطق القطبية و ما جاورها تعيش الذئاب والدببة و الكلاب و كلاب البحر لأنّها حيوانات تحبّ البرودة، و فيما بين القطبين وخط الاستواء تكثر الأغنام و الأبقار و المعز و الحمير و البغال و الخيل لأنّها تحبّ الاعتدال، فسبحان الذي في خلقه شؤون.

9- برهان الاتزان الطبيعي

يقول عزّ و جلّ في سورة الرحمان "وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7)"

إنّ علماء الطبيعة يعرفون القانون الساري عليها و السنّة التي تحكمها، و أبرز قوانين الطبيعة و أجلاها للأنظار هو قانون الاتزان، و لكي يفهم القارئ الكريم المراد بهذا الكلام ارتأينا أن نسلّط الأضواء على الموضوع بإيجاز لعدم تعلق الغرض بالإسهاب و الإفاضة التي يضيع معها المراد، فعلم الطبيعة علم واسع و الإلمام ببحوره متعذرا في هذه الرسالة الضيّقة، فليرجع طالب المزيد إلى مظانه المتخصصة. وإنّما نكتفي بالإشارة فقط بقصد تنبيه القارئ الكريم إلى حكمة الله تعالى في خلقه، و الحجة البالغة المتمثلة في شؤونه و تدبيره، فإنّ الله سبحانه و تعالى وزّع مخلوقاته بأسلوب لا يطغى معه جنس على جنس، و لا يغلب نوع على نوع، و هذا التوزيع المحكم يضمن ثراء الأنواع و بقاء الجنس، إذ لو لم تخضع الطبيعة لهذا النظام لانقرضت أجناس من الحيوانات و لمتلأت الأرض أجناس أخرى، فالسباع لا تلد إلاّ مرة في كلّ سنتين، و بعضها لا يلد إلاّ مرّة مدى الحياة، و الحكمة في ذلك أنّها وحوش ضارية ليس لها أعداء من الحيوانات الأخرى لشراستها و وحشيتها، فلو كثر جنسها لأمكنها أن تفني الأجناس الأخرى الأقل منها قوة، و هي مع ذلك تعمّر طويلا بالمقارنة مع غيرها قد يصل بها السن إلى الأربعين أو حتى الستين أو السبعين في بعض الأحيان، الشيء الذي يناسب ندرة ولادتها، إذ لو قصر عمرها مع ندرة ولادتها لانقرض جنسها، و بذلك تكون كثافة وجودها هي المقدار المثالي لبقائها و بقاء الأجناس الأخرى، و نفس الكلام يقال عن الحيوانات الأخرى التي لم تصنّف في زمرة السباع و لكنّها قويّة كالفيلة و وحيدات القرون و التماسيح، إذ لو كانت كثيرة الإنجاب لانفردت بالغابة وأقصت غيرها من آكلات الأعشاب كالظباء و الغزلان و غيرهما، و لو قصر عمرها إلى ما دون العشرين لقلّ عددها بوجه يمكن معه انقراض جنسها.

أما الحيوانات التي تلد مرتين فما أكثر في السنة الواحدة كالأرانب و الفئران و الضأن و الماعز فذلك وسيلة لها للحفاظ على بقاء جنسها لكثرة أعدائها من الوحوش المفترسة، و الإنسان نفسه يعدّ عدوّا لدودا لبعضها يصطادها و يلاحقها رغبة في لحومها المفضّلة و جلودها و فرائها الثمينة .

فهناك سنّة طبيعية تقضي بأنه كلّما كان جنس من أجناس الحيوان كثير الإنجاب كان ذا عمر قصير نسبيا حتى لا يطغى هذا الجنس بوفرته على الأجناس الأخرى، و إذا لم يكن قصير العمر مع كثرة إنجابه تسلطت عليه أجناس أخرى لتقضي على الزائد منها.

أما السباع فهي نادرة الإنجاب و معمّرة، فندرة الإنجاب و تعميرها يتضافران كي يحفظا على الجنس بقاءه دون خطر محدق بفناء الأجناس الأخرى الأضعف منها، لأنّ الوحوش كاسرة و مفترسة، و كثرتها تفضي إلى القضاء على السكان المجاورين و تفردها بالبقاء. و نفس الكلام يقال عن الطيور، فالجارحة منها مقلاة ندور، أما التي يخشى عليها الفناء كالبغاث و غيره فكثيرة البيض.

لندع الطبيعة و لنعد في زيارة خاطفة لغذاء الإنسان و مكوناته، فمعلوم أنّ الغذاء ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

1-مواد بروتينية بها يبني الجسم ما انهدم من خلاياه و يرمم ما تلف من أنسجته.ف
2-مواد حرورية تعطي الجسم القدرة و الطاقة اللاّزمتين لنشاطه و هي تنقسم بدورها إلى سكريات و مواد دهنية .
3-فيتامينات و هي جزيئات عملاقة معقّدة تنسّق فيما بين الجسم و الاستفادة من البروتينات و الحروريات، هذا علاوة على أنّها تنشّط الجسم و تعطيه القدرة على مقاومة الأمراض.

والفيتامينات هي موضوع حديثنا في هذا المقام لأنّها ذات أثر كبير في تغذية الإنسان، فالفيتامينات مصنّفة حسب الحروف الأبجدية و أهمّها :

1-فيتامين أ حيواني و فيتامين أ نباتي (كاروتين) و تحسب بالوحدات.
2-فيتامينات ب، و أهمّها ب1، ب2، ب6، ب12 و تحسب بالمليغرام.
3-فيتامين ج و تحسب نسبته بالمليغرام.
4-فيتامينات د، و أهمّها د2، و د3 و تحسب نسبتها بالوحدات.
5-فيتامين ه و تحسب نسبته بالمليغرام.
6-فيتامين ك و يحسب بالمليغرام.

وبغض الطرف عن وظائف هذه الفيتامينات، فوظائفها متعددة يضيق المقام لسردها لعدم الحاجة إليها هنا.

نذكر نسب تواجدها في الطبيعة و الحكمة التي رتّبت ذلك. لقد أدرجت جميع الفيتامينات ضمن مجموعتين :

- فيتامينات ذوّابة في الدسم و هي أ، د، ه، ك.

- فيتامينات ذوّابة في الماء و هي ب، ج.

إنّ الفيتامين أ يكثر وجودها في المواد الدسمة مطلقا، و الزائد منه عن حاجة الجسم يخزّن في الكبد لوقت الحاجة أمّا الفيتامين د، إذا زادت نسبته عن حاجة الجسم أضحى سمّا قاتلا، و لذلك فوجوده نادر في الطبيعة بشكل ملحوظ و لا يتوفّر في الأغذية إلاّ بالقدر المرغوب فيه أو ما دون ذلك، و الشمس مصدر لهذا الفيتامين، فتعرض الإنسان إلى أشعّة الشمس لمدّة ربع ساعة يمكنه أن يزوّد حاجة الجسم بالقليل من هذا الفيتامين.

والفيتامينين ب و ك وجودهما في الطبيعة وافر و لكنّ الطبخ يقضي عليهما، و نخل الحبوب و تصفيتها يضيّعان الفيتامين ب لأنّه يكثر في النخالة و قشر الحبوب، و ما دام الطبخ و التصفية يعرضان جسم الإنسان إلى الافتقار من هذين الفيتامينين ، فإنّ هناك مصانع في أمعاء الإنسان تزوّد جسمه بالكافي منها عن طريق جراثيم نافعة تقطن المعي و هي تتكفّل بصنع فيتامينات ب و ك لتغطية النقص في الغذاء، أما فيتامين ج فهو واسع الانتشار و يكاد يتوزّع على جميع الأغذية بنسب وافرة، فمع أنّه شديد الحساسية للهواء و الحرارة، فإنّه يكثر في الفواكه و الخضار الغضّة بنسب هائلة تفي بحاجة الجسم و تزيد، و الزيادة لا تضرّ فالفائض غير محذور لأنّه يخرج ن الجسم عن طريق التبوّل، و فيتامين ج عنصر يساهم في القضاء على الجراثيم و الأجسام الغريبة التي تقتحم الجسم، فينتظم معها و يخرج مع البول، ولذلك ينصح إعطاؤه للمرضى بغير حساب.

و ممّا تجدر الإشارة إليه أنّ الفيتامينات الذوّابة في الماء يحتاج إليها الجسم يوميا، و لضمان كفاية الجسم منها تكفّلت الجراثيم المعوية بصنع الفيتامين ب، و تكفلت الطبيعة بتوفير الفيتامين ج في ثمارها و خضارها، أما الفيتامينات الذوابة في

الدسم فإنّ الجسم بإمكانه أن يخزن بعضها لوقت الحاجة، كما أنّ ندرة الفيتامين د في الطبيعة مقصودة، فسبحان الله الذي أعطى كل شيء خلقه.

خاتمة

إنّ التعرف على ذات الله بالمعاينة شيء متعذّر، و لله حكمة في احتجابه عن خلقه، فمن أراد معرفته سبحانه، فليتأمل في صنائعه، و ليتدارك ما فاته من حكم بثّها الله في موجوداته، فكما أنّ الطائرة تدلّ على ذكاء صانعها اللمّاع، فإنّ هذا الوجود يعجّ بالآيات البينات و البراهين الساطعات على وجود هذا الإله العظيم، على نحو ما قال الشاعر:

يا من يحار الفهم في قدرته ********** و تطلب النفس حمى طاعته

تخفي عن الناس سنا طلعتك**********و كلّ ما في الكون من صنعتك